احمد صليحة

حول العالم

تونس

حول العالم

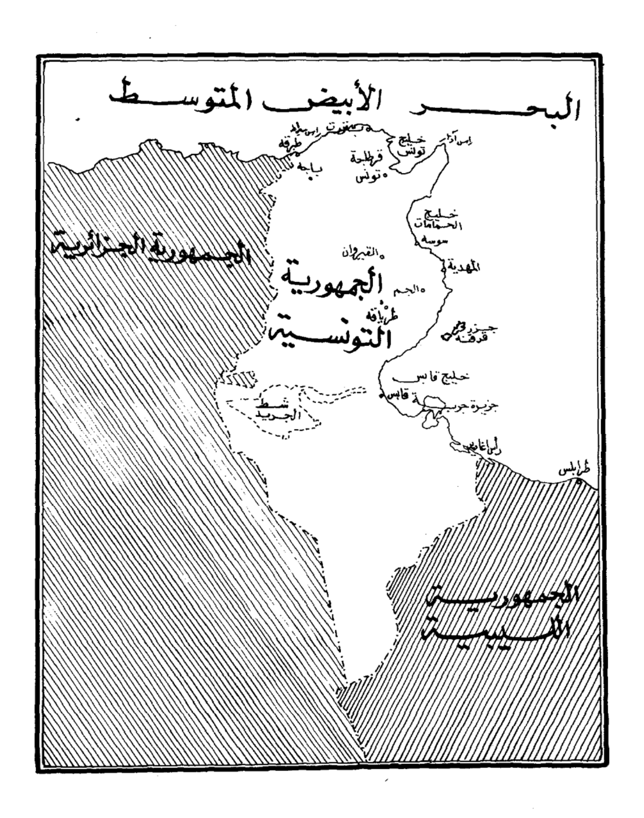


أحمد صليحة

رقم الإيداع : ٤٦٨٤ / ٩٥

الترقيم الدولى : I.S.B.N:977-276-070-3

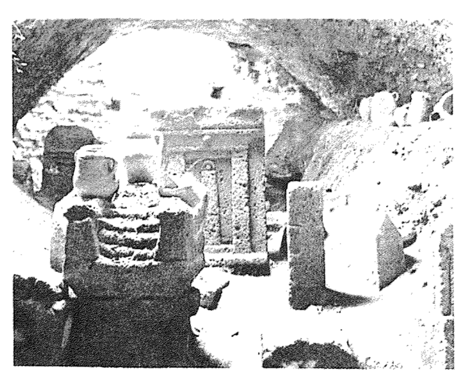
منف للنشر والخدمات الإعلامية


البحر الأبيض المتوسط
طبرقة
بنزرت
خليج تونس
قرطاجة
تونس
باجة
خليج الحمامات
سوسة
القيروان
المهدية
الجم
الجمهورية الجزائرية
الجمهورية التونسية
جزر قرقنة
خليج قابس
قابس
جزيرة جربة
شط الجريد
طرابلس
الجمهورية الليبية

تونس عبر الزمان

كانت ديدو ابنة ملك صور الفينيقى أبرع فتيات عصرها حسنًا وجمالاً، وقد زوجها أبوها من تاجر ثرى يدعى سيخايوس، فعاشت معه حياة هنيئة حتى آل أمر المدينة إلى أخيها بجماليون، وكان رجلاً جشعًا شديد الشراهة للمال، فساءه أن يرى ثروة سيخايوس تنمو وتربو حتى يصبح أكثر أهل مدينته - بل وربما فينيقيا - ثراءً. وسولت له نفسه أن يقتله حتى يستولى على ثروته. وأخفى أمر جريمته عن اخته، التى أوهمها بأن زوجها غائب فى رحلة، حتى كانت ليلة رأت فيها حلمًا رهيبًا.

رأت ديدو شبح زوجها الحبيب يقبل عليها وصدره مرشوق بالحديد، وروى لها كيف اغتاله أخوها، ونصحها بأن تفر بنفسها بعد أن كشف لها عن موضع كنوزه المخبوءة. وحملت الزوجة تلك الكنوز وفرت مع عدد من رفاقها والمقربين إليها من المدينة، وتبعها الكثير من أهلها الذين ضاقوا ذرعًا بظلم أخيها. واستولت ديدو وأصحابها على بعض السفن، وخرجوا إلى عرض البحر حتى انتهوا إلى ساحل شمال افريقيا، فى البقعة التى عرفت فيما بعد بتونس، ورست السفن فى خليج فسيح تمتد إلى الوراء منه بحيرة



مقبرة فى قرطاجة لدفن رماد الأمخيات البشرية

داخلية تصلح لأن تكون مرفأ طبيعيًا، فقررت أن تؤسس هناك مدينة جديدة.

وكانت تسكن هـــذه الأرض عشيرة بدوية، فـأرسلـت إلـى شيخها تطلب منه شراء قطعة منها. لكن الشيخ توجس من هؤلاء، واعتزم أن يرفض طلبهم بلباقة، فأرسل إلى ديدو جلد ثور، وقال لها إنه سيبيعها أية قطعة تختار على ألا تزيد مساحتها على جلد هذا الثور، فرحبت ديدو الذكية بعرضه، وطلبت من رفاقها أن يقطعوا جلد الثور إلى شرائح طويلة رقيقة صنعت منها حبلاً طويلاً أحاطت به مساحة كبيرة من الأرض تكفى لبناء مدينة أطلق عليها لذلك السبب اسم « بيرسا » أى جلد الثور ووصفت بقرطاجة أو قرطاجنة أى المدينة الجديدة باللغة الفينيقية.

لكن القصة لا تنتهى عند هذا الحد، فذات يوم ترسو سفينة شاردة قبالة أسوار قرطاجة، وكانت تحمل على متنها مجموعة من أهالى طروادة الذين فروا من مدينتهم عندما سقطت فى أيدى الإغريق، وكان من بينهم فتى شجاع يدعى اينياس، وكان اينياس هذا ابنا لربة الجمال فينوس حملت به من رجل من البشر، ولا عجب أن الملكة قد أحبته حينما التقت به، وأرادت منه أن يتزوجها ليبقى معها، لكنه تركها



قناع من عجينة الزجاج .. لاحظ أن الشارب حليق وكذلك الجزء الأسفل من الذقن، أما الشعر فمصفف ويلبس الرجل قرطا (حلقا) فى أذنيه

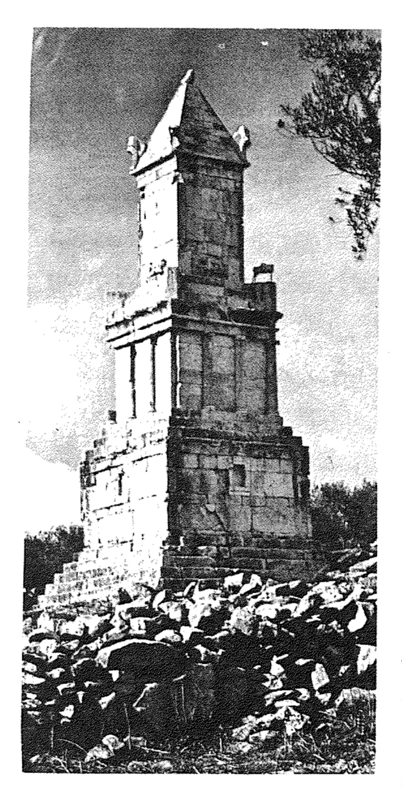
وذهب إلى إيطاليا حيث تزوج من ابنة ملك لاتينيوم، ومن نسله جاء رومولوس مؤسس روما المدينة الخالدة. أما ديدو التعسة فقررت بعد أن فقدت زوجها ثم حبيبها أن تضع نهاية لأحزانها، فأحرقت نفسها ..

روى هذه الأسطورة الشاعر الرومانى الشهير فرجيل فى

ملحمته الانيادة التى نظمها على غرار ملحمتى الإلياذة والأوديسة للتغنى ببطولات الرومان القدماء وسلفهم الأعلى اينياس.

ولعل هذه الأسطورة نشأت من الخلط بين كلمة « بورسا » الفينيقية التى تعنى جلد الثور وكلمة « بوسرا » أو الحصن التى حرفت فيما بعد إلى « بيرسا » وكانت تطلق على مدينة قرطاجة المحصنة. ولكن أحداث هذه الأسطورة توجز بلغة الخيال قصة هذه المدينة العظيمة التى نافست روما ذات يوم على الهيمنة على حوض البحر المتوسط وكادت فى

بقايا إحدى المدن البونية « الفينيقية » فى تونس..
لاحظ أن البيوت قد بنيت من كسر الأحجار
ولاحظ حوض الاستحمام (البانيو) المجهز بمقعد للجلوس



مقبرة أميرة نوميدية من القرن الثانى ق.م

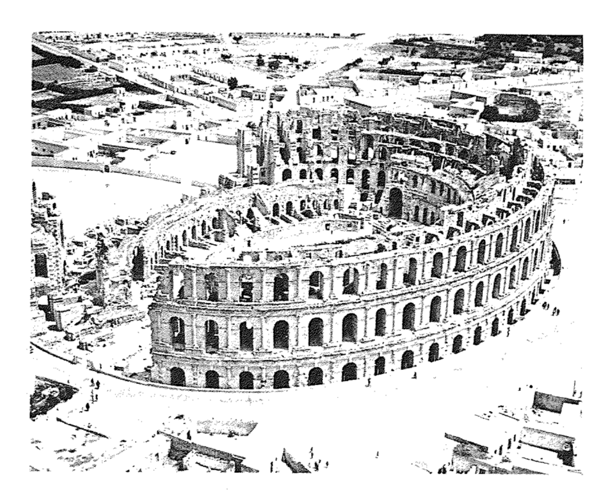
لحظة ما أن تستولى على روما ذاتها وأن تخضعها لسلطانها، ثم انتهى الصراع بدمارها.

أسس الملاحون الفينيقيون من أهل صور هذه المدينة عام ٨١٤ ق.م بالقرب من مستعمرة سابقة لهم، ولذا أسموها بقرطاجة أى المدينة الجديدة. والفينيقيون هم سكان سواحل سوريا ولبنان وفلسطين القدماء، وكانوا شعبًا مغامرًا شديد الجسارة تسيدوا

البحر فى عصرهم، وقاموا بدور عظيم فى النقل البحرى والتبادل الثقافى بين الحضارات المختلفة التى نشأت على ضفاف البحر المتوسط. ومنذ عصور مبكرة اتجهوا إلى الاتجار مع أسبانيا وفرنسا، بل ووصلوا إلى الجزر البريطانية للحصول على القصدير اللازم لصناعة سبيكة البرونز، التى كانت تستخدم فى صناعة الأسلحة حتى اكتشاف الحديد. واضطروا خلال هذه الرحلات البعيدة إلى تأسيس مستعمرات لهم على الشواطئ النائية لتكون محطات للراحة والتموين. وكان من بينها قرطاجة.

ولكن أهل قرطاجة لم يركنوا إلى هذا الدور المتواضع، بل مارسوا التجارة هم أنفسهم وأسسوا مستعمرات أخرى لهم فى أسبانيا وفرنسا وصقلية وسردينيا، وعندما سقطت مدينة صور فى أيدى الأشوريين استقلت قرطاجنة بمستعمراتها التى أصبحت تهيمن بها على التجارة والمواصلات فى غرب البحر المتوسط. واتصلت بالاغريق وتأثرت بحضارتهم.

وكان من الطبيعى أن تصطدم طموحات قرطاجة بأطماع روما التى كانت تتطلع إلى تحويل البحر المتوسط إلى بحيرة رومانية، فدخلت المدينة فى حروب عدة خلال القرنين الثالث والرابع قبل



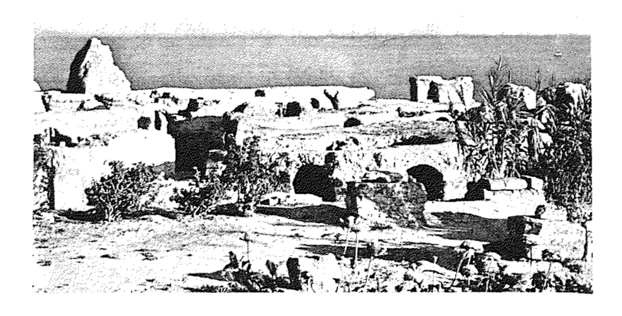
المسرح الرومانى فى دوجا

الميلاد تعرف باسم الحروب البونية، وهو الاسم الذى كان يطلق على سكان قرطاجة، وانتهت السلسلة الأولى من هذه الحروب (٢٦٤-٢٤١ ق.م) بهزيمة قرطاجة وتجريدها من مستعمراتها فى صقلية وسردينيا، ونتيجة لذلك اتجه ملكها هامليكار إلى التوسع فى الساحل الافريقى وفى أسبانيا التى كانت تشتهر بانتاج الفضة.

وقد غرس هاملیكار فى نفس ابنه هانيبال منذ نعومة أظافره كراهية الرومان، ويقال إنه اصطحبه إلى معبد الإله وهو طفل فى الثامنة وجعله يقسم على أن يظل عدوا لدودًا للرومان. وقد بر الطفل بقسمه، فحينما بلغ مبلغ الرجال، أكمل فتح أسبانيا، ثم أعد جيشًا عظيمًا ليزحف منها على ايطاليا عبر جبال الألب الشاهقة ليقهر الرومان فى عقر دارهم. وألحق بالرومان هزائم ساحقة، وأباد جيشًا رومانيًا كاملاً فى موقعة كناى عام ٢١٧ ق.م وبات الطريق ممهدًا أمامه لغزو روما.

لكن هانيبال كان ذلك النوع من القادة الذى يعرف كيف يكسب المعارك ولكنه يخسر الحروب، فأضاع هذه الفرصة واتجه إلى مدن أقل أهمية، مما أتاح الفرصة للرومان للاستعداد، فى الوقت الذى أخذ فيه جيشه يتناقص وتضعف همته، وحينما حاول فيما بعد أن يعيد الكرة على روما فشل فى تحقيق هدفه وانتهت هذه السلسلة من الحروب بهزيمة قرطاجة على يد القنصل الرومانى سكيبو أفريكانوس عام ٢٠٢ ق. م.

وكانت نهاية هانيبال مأسوية، فبعد هزيمته تحالف عليه خصومه فى الداخل، فاضطر إلى الهجرة والعيش فى المنفى، وأخذ الرومان



حمامات هدريان بالقرب من مدينة تونس

يضيقون الخناق، إذ لم ينسوا الإهانة التى ألحقها بهم طوال ١٧ عامًا على أرضهم، فأخذ يتنقل من بلد إلى بلد حتى اضطر فى نهاية المطاف إلى التخلص من حياته حتى لا يقع فى أيديهم.

وانتهت آخر سلسلة من الحروب البونية فى عام ١٤٦ ق. م بتدمير قرطاجة بأكملها، ويقال إن الرومان قد حرثوا أرضها لكى يزيلوا كل أثر لها، ومنعوا البناء أو السكن فى هذا الموقع. واستمر الحال هكذا حتى أمر يوليوس قيصر بإعادة بنائها لتكون حاضرة ولاية افريقية الرومانية بعد حوالى قرن من الزمان.

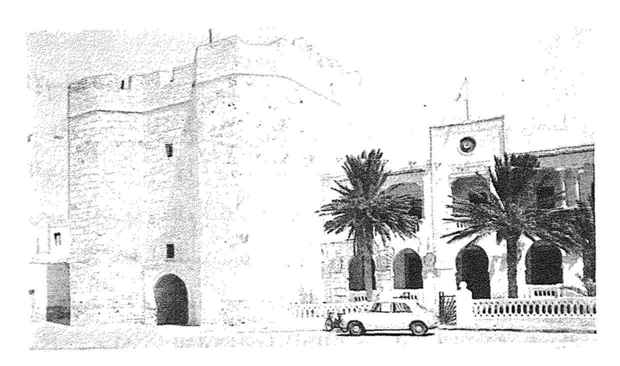
فى ظل الحكم الرومانى شهدت الولاية نشاطًا عمرانيًا كبيرًا

تشهد عليه آثار المدن المتبقية إلى هذا اليوم على امتداد الساحل الأفريقى الشمالى، غير أن الإدارة ميزت بين سكان المدن من الرومان وشيعتهم وبين السكان الأصليين من البربر والقرطاجنيين الذين اعتبرتهم أدوات للانتاج ومورد للضرائب الباهظة.

وكان هذا الظلم الاجتماعى عاملاً مساعداً على انتشار الديانة المسيحية الجديدة بين سكان الولاية الذين وجدوا فى تعاليمها النبيلة التى تدعو للمساواة بين البشر- بغض النظر عن أجناسهم أو أنسابهم أو ألوانهم -أملاً فى الخلاص من ظلم هذا النظام المستغل إن لم يكن فى هذا العالم، ففى عالم آخر أفضل فى السماء.

وكأن ظلم الرومان لم يكن كافيا، فقد ابتليت الولاية الافريقية بغزو من قبائل الفندال (الوندال) البربرية التى كانت قد استقرت فى جنوب أسبانيا، واستولى جنسريك الفندالى على قرطاجنة عام ٤٣٩، وأنشأ اسطولاً ضخماً احتل به جزر البليار وسردينيا وصقلية وكورسيكا، ثم روما نفسها التى دخلها فى ٢ يونيو ٤٥٥، وقام جيشه بنهبها وحمل إليه أرملة امبراطورها فالنتيان وابنتيه.

واستمر حكم الفندال حتى عصر الامبراطور البيزنطى



اسوار مدينة المهدية عاصمة الخلافة الفاطمية الأولى

جستنيان، ففى عام ٥٣٣ م استولى قائده بليزاريوس على قرطاجنة وأسر جاليمار آخر ملوك الفندال وأرسله إلى سيده مكبلاً بالأغلال. وأعاد البيزنطيون فرض النظام فى الولاية، وقد بلغت تلك الولاية حداً من القوة فى السنوات التالية مما مكن واليها هرقل من تزويد ابنه - وكان اسمه هرقل أيضاً - بجيش استطاع به الاستيلاء على القسطنطينية وانتزاع العرش من الامبراطور فوكاس، بينما استولى الوالد على مصر، درة الامبراطورية البيزنطية. وكان هرقل هذا هو الامبراطور الذى عاصر ظهور الدعوة الإسلامية والذى دعاه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى

الإسلام.

وقد تطلع المسلمون بعد فتح مصر عام ٦٤٠ إلى مواصلة الجهاد غربًا وانتزاع ولاية افريقية من يد البيزنطيين، غير أن وعورة أرضها وعظم امتدادها وسهولة تموين ثغورها الساحلية عن طريق الأسطول البيزنطى الذى كان لايزال يسيطر على البحر المتوسط كانت عوامل أبطأت الفتح الذى تم على مراحل متتالية.

وكان من أشهر القادة المسلمين الذين ساهموا فى فتح شمال افريقيا عقبة بن نافع الذى أسس مدينة القيروان عام ٦٧٠م (٥٠هـ). وأكمل مسيرة الفتح حتى وصل بالفعل إلى المحيط الاطلسى حيث اندفع بفرسه إلى البحر وقال عبارته الشهيرة «اللهم فاشهد أننى لو كنت اعلم أن وراء هذا البحر أرضًا لخضته غازيًا فى سبيلك». ولكنه سقط فى كمين أثناء عودته نصبه له أحد زعماء قبائل البربر واسمه « كسيلة »، فاستشهد فى تهودة عام ٦٣هـ.

وتزعمت البربر فى منطقة جبال أوراس امرأة تدعى بالكاهنة وتسميها المصادر العربية بداهيا بنت ماتية بن تيفان، واستطاعت أن ترد المسلمين إلى برقة فى ليبيا، وعاد الروم إلى قرطاجة عام ٦٩٧م، وحاولت هذه المرأة أن تعرقل تقدم المسلمين فأحرقت

المزارع وخربت القرى حتى لا يجد الجيش قوتًا يتزود به، لكن تلك السياسة جعلت الأهالى ينقضون من حولها ويستنصرون المسلمين، الذين جاءوا بقيادة حسان بن النعمان الغسانى ليلحقوا هزيمة ساحقة بالكاهنة عام ٧٠١، وتبعها حتى قتلها، واستولى على قرطاجة التى كانت قد تخربت تمامًا نتيجة للحروب المتوالية، فاهتم الأمير العربى بعمارة ضاحية لها تدعى تونيس أو محط الرحال بالفينيقية، وقد حرف العرب اسمها إلى تونس وأصبح هذا الاسم علمًا على المنطقة. وكان الهدف منها أن تكون ثغرًا يتصدى للروم إذا فكروا فى العودة من جديد، أما العاصمة فكانت مدينة القيروان الصحراوية البعيدة عن الساحل.

وانتشر الإسلام بسرعة بين القبائل وكذلك انتشرت اللغة العربية، وحكم ولاية أفريقية الولاة الأمويون والعباسيون حتى ولى أمرها الأمير ابراهيم بن الأغلب عام ٨٠٠ فى عصر هارون الرشيد، فاستقل بحكم تونس وإن ظل على ولائه الاسمى للخلافة العباسية، وشيد هذا الأمير أسطولاً ضخمًا غزا به صقلية ومالطة وسواحل ايطاليا الجنوبية. واستمر سلطان الأغالبة حتى انتشرت دعوة الفاطميين الشيعية فى شمال افريقيا على يد الداعية أبى عبد

الله الشيعى وكان الفاطميون يزعمون أنهم من نسل ابنة الرسول صلى الله عليه وسلم فاطمة الزهراء وعلى بن ابى طالب زوجها وانهم بذلك أحق بحكم المسلمين من غيرهم، وأيدته قبيلة كتامة البربرية، وقاد أبو عبد الله الثورة على زيادة الله آخر أمراء الأغالبة باسم الخليفة الفاطمى عبيد الله المهدى، وكان آنذاك يعيش مختفياً عن الأنظار فى الشام خوفًا من العباسيين.

وتنكر عبيد الله وابنه فى هيئة التجار وسار من الشام إلى مصر ومنها إلى تونس ثم إلى المغرب وأقام فى مدينة سجلماسة واشترى سكوت أميرها بالمال، بينما واصل أبو عبد الله الشيعى القتال حتى استولى على مدينة القيروان، وفر زيادة الله إلى طرابلس، وهنا أحس أمير سجلماسة بخطورة عبيد الله المهدى فأمر بالقبض عليه، ولم ينقذه من الموت سوى مقدم أبى عبد الله الشيعى بجيشه الذى حاصر المدينة وأجبر أميرها على الفرار.

وكانت مكافأة أبى عبد الله الشيعى على جهوده بعد أن استتب الأمر لعبيد الله المهدى أول الخلفاء الفاطميين أن أمر الخليفة الفاطمى بقتله تحسباً لقوة نفوذه. وكان قاتله يدعى عروبة، وحينما هم بقتله صاح به أبو عبد الله يناشده ألا يفعل، فقال له عروبة فى

سخرية مريرة « لقد أمرني بقتلك من أمرت الناس بطاعته.»

ورغم نجاح الفاطميين في الاستيلاء على السلطة. لكنهم لم ينجحوا في تحويل أغلبية السكان المسلمين عن مذهبهم السني، وفي عام ٩٧١م، أي بعد ٦٢ سنة من قيام الدولة الفاطمية في تونس انتقل الفاطميون من عاصمتهم « المهدية » إلى القاهرة بعد استيلائهم على مصر، وأخذ نفوذهم يضعف تدريجيًا في شمال افريقيا حتى انفصلت عنهم تونس، فسلطوا عليها بعض القبائل العربية مثل هلال وسليم وعقيل التي غزت أرضها وأحدثت الفوضى بها.

ثم خضعت تونس في عام ١١٥٩ إلى حكم الموحدين الذين أسس دولتهم المهدي بن تومرت على انقاض دولة المرابطين في مراكش عام ١١٤٦، واستطاعت هذه الدولة التي حمل سلاطينها ألقاب الخلافة أن توحد شمال افريقيا والأندلس تحت حكمها لقرن من الزمان تقريبا، ولكن بعد وفاة الخليفة يعقوب المنصور (١١٩٩) بدأ دور الانحطاط والانقسام، فاستقل الأمراء الحفصيون بتونس عام ١٢٢٨.

وقد أسس هذه الأسرة الأمير أبو حفص عمر الهنتاني وحكمت

سلالته أرض تونس والجزائر الشرقية وطرابلس الغرب حتى استولى عليها العثمانيون في القرن السادس عشر.

ومع اضمحلال قوة الحفصيين، نجح القراصنة فى إنشاء مراكز لهم على سواحل شمال افريقيا. وكان نشاط هؤلاء القراصنة موجهًا ضد السفن الأوربية، ولم يكن الدافع الأساسى هو السرقة، بل كان موجهًا أساسًا لتقويض قوة تلك الممالك الغربية التى نجحت فى طرد المسلمين من الأندلس وبدأت تسعى لنقل ميدان القتال إلى أرضهم.

وكان أمير هؤلاء القراصنة يدعى خير الدين (بربروس) الذى أعلن ولاءه للعثمانيين حتى يستعين بهم على مواجهة الأسبان، واستطاع بالفعل أن يهزم الأسطول الأسبانى عام ١٥١٩ ثم استولى على تونس باسم العثمانيين عام ١٥٣٤، فلجأ آخر سلاطين الحفصيين إلى الاستعانة بملك أسبانيا شارل الخامس الذى أعاده إلى العرش عام ١٥٣٥، ولكن الأتراك استولوا على تونس من جديد عام ١٥٧٤م.

وكانت حكومة الولاية تخضع فى بادئ الأمر لحكم الباشا الذى يعينه الخليفة، ثم أصبح لقب حاكم تونس الباى، وتمتع الباى بقدر

كبير من الاستقلال، كما بدأ توريث اللقب، وفى عام ١٧١٠ أسس الباى حسين الأسرة التى حكمت تونس حتى تأسيس الجمهورية عام ١٩٥٦.

ولقد لجأ بعض أفراد هذه الأسرة إلى إدخال الكثير من الإصلاحات الإدارية والتشريعية فى القرن التاسع عشر، فألغى الباى أحمد (١٨٣٧-١٨٥٥) تجارة الرقيق وشجع الارساليات على تأسيس المدارس الحديثة وكون جيشًا على النسق الأوربى، ومدت فى عهد سلفه السكك الحديدية وخطوط التلغراف، وفى عهد محمد الصادق (١٨٥٩-١٨٨٢) وضع دستور لتونس.

ولكن هذه الاصلاحات أجبرت الحكام التونسيين على الاستدانة من الخارج وفرض الضرائب الباهظة، مما أدى إلى وقوع الاضطرابات فى البلاد وفتح باب التدخل الأجنبى. وقد تنافست بريطانيا وفرنسا وايطاليا على احتلال تونس، ووقى هذا التنافس - لفترة تونس شر الاحتلال، ولكن بريطانيا عقدت اتفاقًا مع فرنسا يتيح لها احتلال قبرص فى مقابل ترك تونس لفرنسا، التى بادرت الى انتهاز فرصة وقوع غارة من بعض الجماعات البدوية التونسية على الحدود الجزائرية التى كانت تخضع لها، فأرسلت قوة من ٣٠

ألف جندى لإجبار الباى على الخضوع لسلطانها، وعقد الباى بالفعل معاهدة مع فرنسا فى ١٢ مايو ١٨٨١ بهذا الشأن، ولكن هذا الاستسلام أدى إلى اندلاع الثورة فى المناطق الداخلية، فتدخلت فرنسا لقمعها، وفى عام ١٨٨٣ فرضت الحماية على تونس.

وقد قاد النضال من أجل الاستقلال حزب الدستور بزعامة عبد الرحمن الثعالبى فى أعقاب الحرب العالمية الأولى، ثم حمل الراية من بعده حزب الدستور الجديد الذى تزعمه محامٍ شاب يدعى الحبيب بورقيبة. وقد اعتقل بورقيبه وزعماء الحزب عدة سنوات حتى احتل الألمان فرنسا وأطلقوا سراحهم أملاً فى أن ينجحوا فى ضم الحركة الوطنية إلى صفوف المحور، ولكن بورقيبة كان من بعد النظر بحيث أبى التعاون مع الألمان والايطاليين رغم أنهم كانوا آنذاك يحتلون تونس. واستمر النضال عقب عودة الاحتلال الفرنسى فى نهاية الحرب العالمية الثانية، واضطر بورقيبة إلى اللجوء إلى القاهرة، ثم عاد إلى التفاوض مع السلطات الفرنسية التى اعتقلته. وعلى أثر ذلك نشبت موجة من الأعمال الفدائية، خاصة فى المناطق الجبلية الصحراوية، واضطرت السلطات

الفرنسية في نهاية الأمر إلى التسليم بمطلب بمبدأ الحكم الذاتى، وهو ما قبله بورقيبة الذى رأى أن هذا النظام سيتيح له بالتدريج الحصول على الاستقلال التام.

وقد اعترفت باستقلال تونس فى ٢٠ مارس ١٩٥٦، وألغى على أثر ذلك نظام الباى، وأعلنت الجمهورية وانضمت تونس إلى الأمم المتحدة والجامعة العربية. ولكن العلاقات ما زالت وثيقة بينها وبين فرنسا، غير أن هذه العلاقات قائمة الآن على المصلحة المشتركة لا على الاستغلال والسيطرة كما كان الوضع فى الماضى.

وظل الحبيب بورقيبة يحكم تونس حتى عام ١٩٨٧، حينما أقصاه من الحكم رئيس الوزراء زين العابدين بن على بعد أن تقدمت به السن وأصبح غير قادر على إدارة شؤون البلاد، ولكن اسمه مازال يحظى بالتقدير والاحترام فى بلده نظرًا للدور الوطنى الكبير الذى لعبه فى سبيل تحقيق الاستقلال الكامل لتونس بعد قرون طويلة من الاستعمار التركى والفرنسى.

تونس عبر المكان

كان القدماء يشيرون إلى شمال افريقيا غرب وادى النيل عامة باسم لوبيا أو ليبيا، تمييزًا له عن الجنوب الذى تسكنه القبائل

الزنجية، والذى كان يشار إليه عامة باسم اثيوبيا، وعندما تأسست قرطاجة، أشار أهلها إلى السكان الوطنيين فى المنطقة باسم أفرى، ولذا أطلق الاغريق على الساحل اسم « أفريكا » أى « أرض الأفرى »، وهى الكلمة التى عربت إلى افريقية، ثم استخدمت فيما بعد كاسم للقارة بأسرها.

أما اسم تونس، فتشير المصادر العربية إلى أنه مشتق من الأنس، وتقول إن القائد العربى جسان بن نعمان قد أقام ثغراً صغيراً على أطراف قرطاجة بعد خرابها، وبنى به جامعاً وداراً للإمارة وأخرى لصناعة السفن ومساكن للجند، وكان بالقرب منه دير يسهر رهبانه فى الصلاة والعبادة، فيأتنس الجند الساهرون بأصوات تراتيلهم فى تلك البقعة الموحشة. وهى قصة طريفة تظهر مدى احترام الإسلام للديانة المسيحية.

ولكن الحقيقة إن تاريخ المدينة أقدم من الفتح العربى بكثير، فيبدو أنها ترجع على الأقل إلى القرن الرابع قبل الميلاد، واسمها مشتق من كلمة بربرية تعنى فيما يرجح محط الرحال، لأنها كانت تقع على أطراف مدينة قرطاج وعندها يضع المسافر رحاله ثم يتأهب لدخول المدينة.

وقد أعطت تونس اسمها للبحيرة المجاورة لقرطاجة وللخليج الذى تطل عليه ولدولة تونس بأكملها، وتوصف تونس بالخضراء تمييزا لها عن المناطق الجنوبية الصحراوية.

تقع تونس فى منتصف الطريق تقريبًا بين جبل طارق وقناة السويس، وتحدها الجزائر من الغرب وليبيا من الجنوب والبحر المتوسط من الشمال والشرق، ويمتد ساحلها من رأس أغادير شرقًا إلى طبرقة غربًا لمسافة ١٣٠٤ كم، وساحلها كثير التعاريج ويؤلف خلجانًا تصلح لأن تكون موانى جيدة، مما ساعد على اتساع نشاطها البحرى منذ أقدم العصور، وأهم خلجانها تونس والحمامات وقابس.

وتبلغ مساحة الجمهورية التونسية ١٦٤ ألف كم مربع وعدد سكانها حوالى ٨ ملايين نسمة (١٩٩٠)، معظمهم من المسلمين مع أقليات صغيرة من المسيحيين واليهود تتركز فى الشمال والشرق. واللغة العربية هى السائدة، ولا يتكلم اللغة البربرية إلا ٢٪ من السكان.

وتمثل تونس الطرف الشرقى لسلسلة جبال أطلس، ولكنها أقل وعورة من الجزائر، وتقسم جبال أطلس البلاد إلى قسمين

أساسيين: سهول ساحلية فى الشمال والشرق مطيرة، وسهل صحراوى فى الجنوب يعتمد الرى فيه على المياه الجوفية ومياه السيول. وأرض الجانب الغربى من المنطقة الصحراوية أقل ارتفاعًا من الجانب الشرقى، الذى تغطى جانبًا كبيرًا منه سبخات ملحة تعرف باسم شط الجريد لما ينمو حولها من بوص ونباتات برية.

ويتفاوت المناخ من حيث الحرارة والمطر وفقًا للارتفاع والقرب من ساحل البحر، ومناخ المناطق الساحلية ينتمى إلى اقليم البحر المتوسط، أى بارد ممطر فى الشتاء وحار جاف صيفًا. ويبلغ منسوب المطر فى الشمال حوالى ٣٨١مم ويكفى للزراعة، ولكنه ينخفض جنوب صفاقس إلى ١٧٨مم، أما الأجزاء الجنوبية فمناخها صحراوى جاف.

ولا توجد بتونس أنهار كبرى كمصر، ولكن بها الكثير من الأودية التى تفيض بمياه السيول فى الشتاء، ومن أهمها وادى مجرده وتبلغ مساحة حوضه ٢٣ ألف كم مربع، ويفيض فى الشتاء بقوة تتراوح بين ٧٥ و ٢١٠م مكعب فى الثانية، تنخفض إلى ٦م مكعب فى يونيو ويوليو.

ويعتمد السكان على الزراعة، وأهم المحاصيل هى الحبوب

(القمح والشعير) والخضر والفاكهة، ولاسيما الزيتون فى المناطق الشمالية الشرقية، ويقدر عدد أشجار الزيتون بحوالى ٣٠ مليون شجرة. كما تجود بأرضها الموالح والكروم والتمور.

وتوجد بتونس ثروات معدنية لا بأس بها، فهى خامس منتجة للفوسفات فى العالم، ويستخرج من أرضها الحديد والرصاص والزنك وكذلك البترول وإن كانت لا تعد من كبار البلدان البترولية مثل شقيقتيها الجزائر وليبيا. والصناعة مازالت فى تونس حديثة نسبيًا، ولكنها تمضى بخطوات سريعة فى سبيل التطور، ومن أهمها تكرير البترول والأسمنت وإطارات السيارات والمنسوجات والورق والسجاد. ولكن أهم صناعة فى تونس هى السياحة.

وقد نجحت تونس فى هذا المجال لأسباب كثيرة منها جمال الطبيعة واعتدال المناخ وعراقة التاريخ، فضلاً عن أنها تجمع بذكاء بين الطابع الشرقى الأصيل الذى تجسده المساجد والبيوت المبنية على الطراز الإسلامى وبين النظافة والدقة والأناقة التى تتسم بها المدن الأوربية.

تونس

ظللت لسنوات أحسب أن اللغة العربية قد انقرضت من تونس مثل غيرها من المستعمرات الفرنسية السابقة، وذلك بعد تجربة حدثت لى فى القاهرة، فقد التقيت بشاب جزائرى كان يجلس مع صديق ألمانى فى أحد المقاهى الشهيرة بحى الحسين، وقد تعارفنا ودار بيننا حديث شائق بالانجليزية، ثم انصرف الصديق الألمانى لبعض شأنه، وإذا بالفتى الجزائرى يلتفت إلى ويحدثنى بلغة غريبة لم اسمع بها من قبل، حسبتها فى أول الأمر الفرنسية، ولكنى تبينت بعد قليل من تكرار حروف العين والخاء والحاء أنها العربية.

خجلت من أن أصارح الشقيق العربى بجهلى وقررت أن أسايره حتى يعود الصديق الألمانى فنرجع إلى الحديث بالانجليزية، واكتفيت برسم ابتسامة بلهاء على وجهى وهز رأسى علامة الاستحسان والموافقة، فأخذ الفتى يتحدث ويتحدث فتركته يسترسل دون مقاطعة لكن صديقنا هذا- سامحه الله - أصر على أن يخرجنى من صمتى، ووجه إلى سؤالاً كان من الواضح أنه ينتظر عنه إجابة أكثر من هز الرأس، ولم استطع أن أميز من السؤال سوى كلمة « العويلة »، وكان فريد الأطرش فى تلك اللحظة

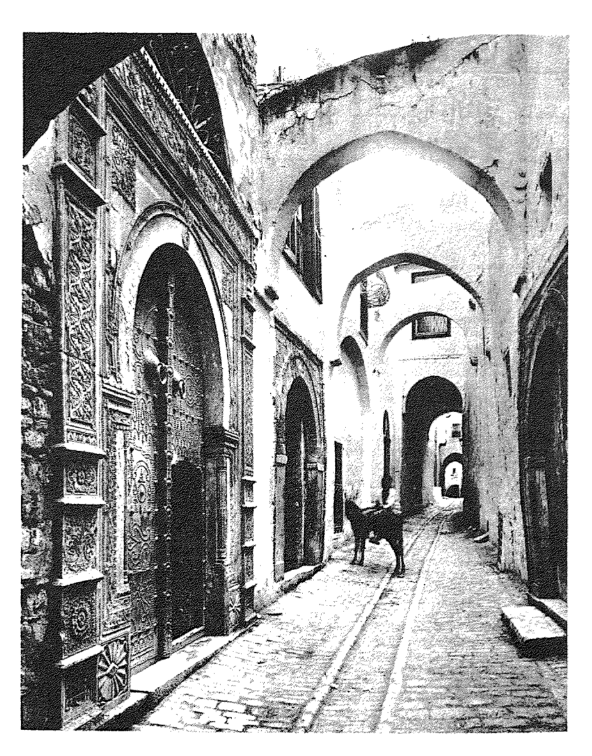
يغنى فى الراديو، فقلت -بذكائى - لابد أن العويلة هذه مشتقة من البكاء وتعنى الأغنية الشجية، فقلت: « الواقع أننى أفضل « عويل » عبد الوهاب.» فنظر لى فى دهشة بالغة، ثم إذا بالحقيقة تشرق على ذهنه، فأوضح لى ضاحكًا بالإنجليزية أنه كان يسألنى عن الطقس!

ورغم صعوبة اللهجات العربية فى بلدان المغرب على الأذن المصرية غير الخبيرة، لكن أبناء المغرب العربى يفهمون اللهجة المصرية ويحبونها ويرون فيها سهولة ويسرًا فى التعبير، والسبب فى ذلك أفلام السينما وبرامج التليفزيون المصرية، ومن قبلهما الفرق المسرحية المصرية التى بدأت فى التردد على تونس قبل مائة عام تقريبًا، والتى يعتبرها الكثير من التونسيين الأب الشرعى للمسرح التونسى، فقد تتلمذ الكثير من الممثلين والمخرجين الرواد على أيدى جورج أبيض وزكى طليمات ويوسف وهبى وغيرهم من نجوم المسرح المصرى.

والواقع أن اللهجة التونسية من أوضح اللهجات المغربية وأسهلها على الأذن المصرية وأقربها إلى اللغة العربية، والتونسيون يحسنون نطق القاف، فهى لا تقلب إلى جيم أو تخفف إلى همزة

كما هو الحال فى بعض اللهجات العربية الأخرى، وهذه القاف تعطى وقعًا مميزًا للهجة التونسية. ومن الطريف أن أشهر وأعظم شعراء العامية المصرية كان ينحدر من أصل تونسى، وأعنى بذلك بيرم التونسى. وبعض الكلمات تستخدم بصورة صحيحة ولكنها غير مألوفة للزائر المصرى بل وقد تثير انزعاجه، فقد رأيت فى شوارع تونس سيارة اسعاف مكتوب عليها المركز القومى لتصفية الدم ويقصدون بذلك مركز تنقية الدم لمرضى الفشل الكلوى، كما رأيت لافتة سياسية تدعو « لتشريك » (إى اشراك) الشباب فى الإدارة. أما فى الريف والمناطق الداخلية فاللهجات المحلية أكثر صعوبة، خاصة لمن أراد أن يبحث عن طعام يشتريه. وربما كان ذلك بسبب تأثير لهجات البربر.

وقد سبق البربر العرب إلى سكنى بلدان المغرب، ولا تعرف هذه القبائل على وجه الدقة، فيرى البعض أنها قدمت من أوربا، ويرجح آخرون مجيئها من شبه الجزيرة العربية، ويبدو أن اسمها جاء من كلمة البرابرة التى كان الأغريق وكذلك الرومان يصفون بها الأجانب، دون أن يعنى ذلك بالضرورة أنها كانت قبائل همجية، إذ كان الاغريق يستخدمون نفس هذه الكلمة لوصف المصريين



الشوارع القديمة فى تونس بدورها العربية

القدماء الذين تعلموا منهم الكثير من فنون الحضارة.

وينقسم البربر إلى جنسين مختلفين : الأول وهم الأغلبية، يتميز بلونه الأسمر وشعره الأسود ورأسه المستدير، والثانى يتميز بشقرة الشعر وزرقة العينين واستطالة الرأس، ويتركز فى منطقة الريف وجبال جرجرة بالمغرب الأوسط، وتنقسم قبائل البربر إلى



تونس قبل مائة عام

طائفتين، بربر الحضر أو القبائل المستقرة وتسمى بالبرانس، والبربر الرحل ويعرفون بالبتر. وربما كان اسم البرانس راجعًا إلى عادة ارتداء البرنس، الذى يميز بوجه عام الزى التقليدى المغربى.

واللون الأبيض هو الأحب الألوان للتونسيين، تراه فى مبانيهم وملابسهم التقليدية، ففى المناطق الشعبية تغطى المرأة جسمها بملاءة تشبه « الملاءة اللف » المصرية القديمة، ولكنها بيضاء اللون ومن قماش سميك وتغطى الرأس، أما الزى التقليدى للرجال فكان السروال الأبيض والجلباب الأبيض القصير، وقد يرتدى غطاءً للرأس أحمر اللون كالطربوش المغربى، وقد يلفه بشال كالعمامة.

ولا يعرف التاريخ الحقيقى لمدينة تونس، ولكنها - فيما يرجح - تسبق الفتح الإسلامى بألف سنة على الأقل. ورغم هذا فلم تكسب هذه المدينة أهمية حقيقية فيما يبدو إلا حينما اهتم بتعميرها حسان بن النعمان لتكون ثغرًا اسلاميًا بعد خراب قرطاجة، التى مازالت آثارها قائمة حتى اليوم إلى الشمال.

وقد خلفت القيروان كعاصمة للبلاد، وهى عاصمة ولاية تونس والأهواز، احدى الولايات الثمانى عشرة التى تتألف منها الجمهورية التونسية. وقد بنيت على مضيق يفصل بين بحيرتين

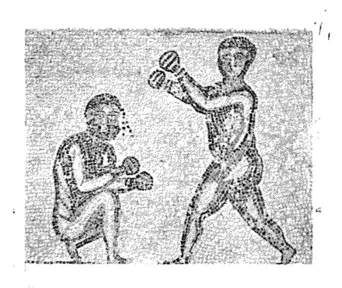
ملحيتين هما بحيرة تونس فى الشرق وسبخة سيجوم فى الغرب. وأقدم أحيائها فى الجانب الغربى حيث القصبة، ويتسم هذا القسم بشوارعه الضيقة الملتوية التى ما تزال تحتفظ ببعض بواباتها، والكثير من أبنيتها ذات الطراز العربى العتيق.



اللون الأبيض هو الأثير لدى الشعب التونسى فى المسكن والملبس

والسير فى هذه الطرقات تجربة ممتعة، فالزائر يخال أنه قد ارتد مئات السنين إلى الوراء ليحيا فى قلب التاريخ. وتمتاز هذه الشوارع على ضيقها بالأناقة والنظافة، وبعضها مسقوف لحماية السابلة من وهج الشمس، وقد ذكرتنى إلى حد بعيد بمنطقة النحاسين والغورية، وبالقرب من جامع الزيتونة، أقدم جوامع المدينة، السوق الشرقى الذى يشبه خان الخليلى فى مصر من حيث بضائعه وتحفه الشرقية من

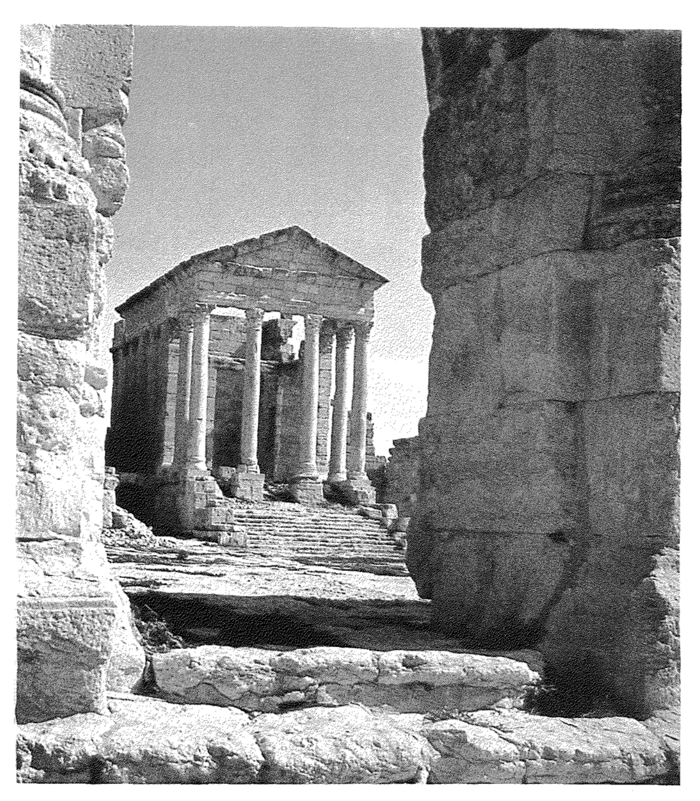
قصر الباى فى ضاحية باردو ويجسد روعة العمارة الإسلامية فى تونس وقد تحول الآن إلى متحف .. فى نهاية الصورة لوحة من الفسيفساء تصور الشاعر الرومانى فرجيل



وحة من الفيسفاء تصور ملاكمين



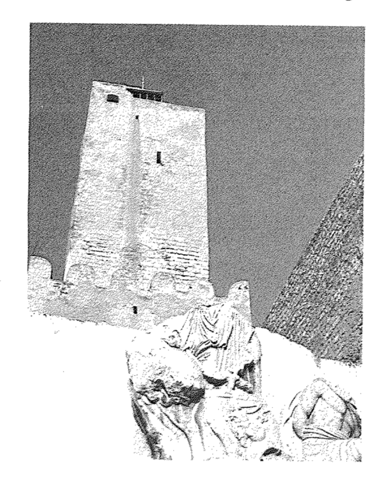
الميدوزا شيطانة خرافية فى هيئة امرأة تخرج من رأسها أفاع تحول من ينظر إليها إلى حجر



واجهة معبد دوجا .. نموذج لطراز المعابد الرومانية

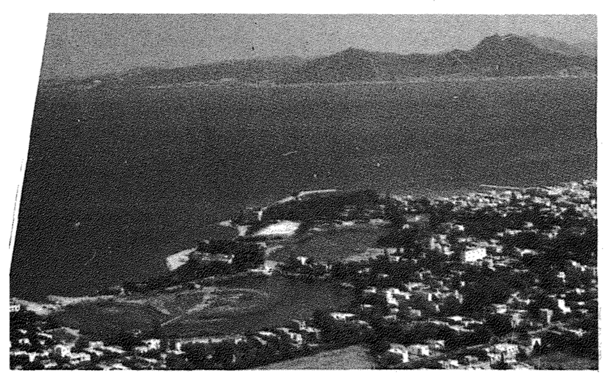


جامع سوسة الكبير



اقيم رباط سوسة على موقع
اثر رومانى قديم كما يدل
هذا النقش الذى يصور قائدا
رومانيا يركب عجلته الحربية
ويجرو وراءه أسيرا مقيدا

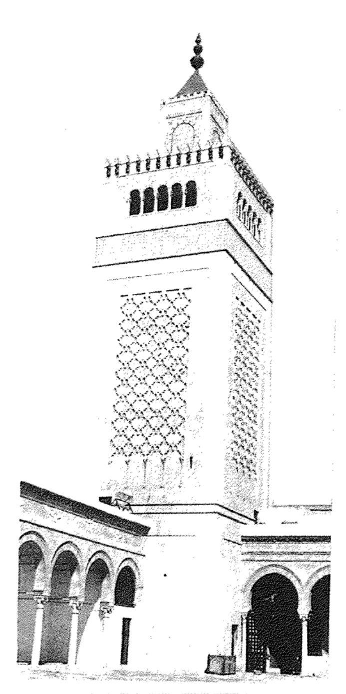
تطريز الملابس بخيوط الذهب والفضة حرفة فنية
برع التونسيون فيها وتتجلى فيها روعة الفن الإسلامى



خليج تونس يهيمن عليه من بعيد جبل له قمة مزدوجة
يعرف باسم جبل بوجرين أو أبوقرنين

المكاحل والسبح والأطباق النحاسية والخشبية المطعمة بالصدف والعاج والسجاد اليدوى. والثياب الشرقية المطرزة، وخاصة الجلابيب التى يقبل السائحون الأجانب على اقتنائها، وهى تشبه الجلباب المصرى ولكنها تتميز عنه بالقلنسوة أحيانا.

أما القسم الشرقى من المدينة، وهو المجاور للبحيرة، فهو أحدث، ويتسم بشوارعه الواسعة ومبانيه ذات الطراز الغربى، ويخترقه من الشرق إلى الغرب شارع الحبيب



مئذنة جامع الزيتونة ، أقدم جامعة إسلامية فى تونس

بورقيبة أكبر شوارع العاصمة، وعلى جانبيه تصطف البنوك والمتاجر الكبرى والفنادق والمقاهى، كما أنه يضم كتدرائية ضخمة تبرز طابعه الغربى الذى يذكرنا بشوارع « وسط البلد » فى القاهرة. كما أن به مسرح البلدية، وبعض دور السينما، ومعظمها يعرض أفلاماً فرنسية. والفرنسية ليست باللغة الأجنبية فى تونس، ولذا فالأفلام الفرنسية لا تعرض مترجمة.

والصحف والجرائد الفرنسية منتشرة فى تونس، ومما ييسر اقتناءها ارتفاع قيمة الدينار التونسى (١٠٠٠ مليم)، الذى تزيد قيمته على الدولار، وكان يعادل حينما ذهبت إلى هناك أربعة جنيهات مصرية تقريباً.

ومرفأ المدينة فى منطقة تعرف باسم لاجوليت أو حلق الوادى ومنه تدخل السفن إلى بحيرة تونس عبر قناة ضيقة طولها حوالى ١٠ كم شقت عام ١٨٩٣. وتستمد المدينة ماء الشرب من بحيرة صناعية وعدد من الآبار والينابيع من منطقة تقع إلى الجنوب فى وادى مليان على بعد حوالى ١٠٠ كم. أما فى الماضى، فقد أقام الرومان فى عهد الامبراطور هدريان (القرن الثانى الميلادى) قناطر ضخمة لنقل المياه إلى قرطاجة من جبل زعفران، ومازالت آثار هذه

القناطر أو الحنايا كما يسميها التونسيون باقية حتى الآن فى حى باردو

ومن أشهر الآثار فى هذا الحى قصر الباى أو قصر باردو، الذى يعتبر نموذجًا بديعًا للعمارة الاسلامية فى شمال افريقيا، وقد تحول الآن إلى متحف أثرى يضم مجموعة عظيمة من اللوحات الفسيفسائية الرومانية التى كانت تزين قصور قرطاجة ومعابدها ودورها، وهى لوحات مصنوعة من قطع صغيرة من الأحجار الملونة أو من مواد أخرى مثل الأصداف أو الخزف أو الزجاج، والفنان لا يلون هنا لوحته بالأصباغ، بل يلصق هذه الأحجار الملونة الواحدة بجوار الأخرى ليستعيض بألوانها عن الأصباغ. وهى طريقة شاقة وتستلزم جهدًا وصبرًا، ولكنها تضمن بقاء الألوان ثابتة على مر الزمان. وقد نشأ هذا الأسلوب فى الحضارة العراقية القديمة ومنها انتشر فى باقى أرجاء العالم، ثم وصل هذا الفن إلى أعلى ذراه فى الحضارة الرومانية وورثتها الحضارة البيزنطية. واستخدم لتزيين الجدران والأرضيات حتى عصر النهضة حينما اخترعت الألوان الزيتية، فبدأ الفنانون ينصرفون عنه إليها نظرًا للإمكانيات الفنية الكبيرة التى تتيحها تلك الألوان، فضلاً عن

سهولة استخدامها. ومن هذه اللوحات ما يصور أحداثًا من الأساطير الرومانية أو مناظر طبيعية أو وقائع تاريخية ومن أطرفها مشهد مباراة للملاكمة بين لاعبين يلبسان القفازات.

وكما تباهى القاهرة بالجامع الأزهر، تباهى تونس بجامعها العتيق المعروف باسم الزيتونة، الذى يعد من أقدم وأشهر الجوامع فى شمال أفريقيا ومن أبدعها زخرفة، فضلا عن أنه كان ومازال جامعة إسلامية عريقة. وهو يشبه الجامع الأزهر فى تخطيطه العام تقريبًا، فهو يتألف من صحن مربع تحيطة أروقة ممهدة من ثلاث جهات، ومن الجهة الرابعة بيت الصلاة الذى يقطعه رواق عريض مرتفع السقف يعرف باسم المجاز، والغرض منه ابراز اتجاه القبلة. وتعلو القبلة قبه حجرية بديعة الزخرفة تحمل نصًا كتابيًا يشير إلى بناء هذا الجامع فى عهد الخليفة العباسى المستعين بالله عام ٢٥٠ هـ (٨٦٤م) أى فى عصر الأمير الأغلبى أحمد أبى ابراهيم الذى توفى قبل بناء الجامع، فأكمله خلفه زيادة الله. ويسجل النقش اسم المهندس الذى أشرف على بناء الجامع وكان يدعى فتح الله.

وينتهى المجاز بقبة أخرى أكبر تطل على الصحن وتعد من أبدع

القباب الإسلامية من حيث تناسق التخطيط والنسب وثراء الزخارف، وهى ترجع إلى عام ٣٨١ هـ. وسقف الجامع مرفوع على عقود بهيئة حدوة الفرس، وهو من السمات البارزة فى العمارة المغربية والاندلسية. أما المئذنة، ويطلق عليها فى شمال افريقيا الصومعة، فهى عبارة عن برج مربع متدرج الأرتفاع تكسوه زخارف هندسية بديعة، ورغم روعة زخارفها ودقة نسبها، لكنها لا تستطيع أن تنافس المآذن المصرية من حيث رشاقتها وارتفاعها. وقد بنيت هذه المئذنة أو الصومعة عام ١٣١٢م.

قرطاجة

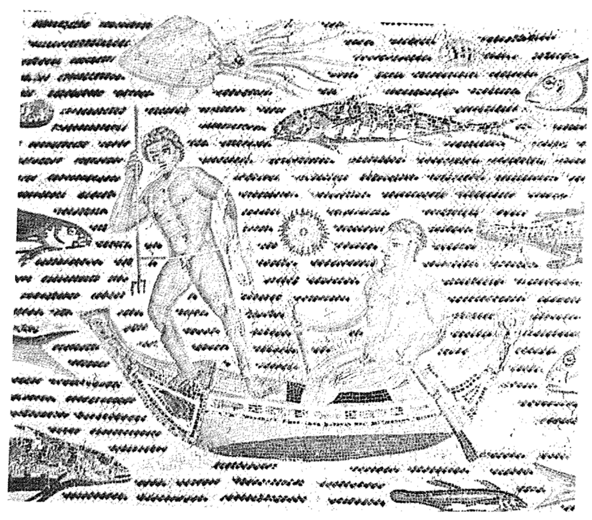
تقع آثار مدينة قرطاجة (قرطاج) على ساحل خليج تونس فى البقعة المحصورة بين بحيرة تونس فى الجنوب وسبخة أريانا فى الشمال. وقد تعرضت هذه المدينة إلى التخريب أكثر من مرة كان آخرها عندما غزا الملك الفرنسى لويس التاسع تونس، وهو نفس الملك الذى حاول أن يغزو مصر فى عصر الملكة شجرة الدر، ثم هزم وأسر فى دار ابن لقمان بالمنصورة.

ولم يتعظ لويس بهزيمته الشائنة فى مصر، فحاول الاستيلاء

على تونس، ولكنه أصيب بالطاعون وتوفى هناك عام ١٢٧٠ حيث دفن على ربوة عالية تطل على مياه الخليج تعرف باسم ربوة بيرسا أو ربوة سان لوى، وقد أقام الفرنسيون فيما بعد كتدرائية عظيمة فى تلك البقعة تخليداً لذكرى ذلك الملك الذى يعتبرونه قديساً.

ولم تكن قرطاجة مملكة بالمعنى الحرفى للكلمة، بل كانت السلطة فيها للجنة مختارة من أفراد الطبقة الأرستقراطية التى كانت تتألف من كبار التجار وأصحاب المزارع وقادة الجند. وكان القرطاجيون رجال أعمال قبل كل شئ، فقد اهتموا بصناعة النسيج والجلود والتجارة والزراعة وتربية الحيوان، ولكنهم لم يعنوا كثيراً بالفنون أو الآداب، إذ لم يصلنا من التراث الفكرى لهذه المدينة سوى كتاب واحد فى الزراعة.

ولم يبتكر القرطاجيون طرازاً فنياً خاصاً، ويبدو أن فنهم كان مزيجاً من الفن اليونانى والفن الفينيقى. وقد ورثوا من الفينيقيين كتابتهم الأبجدية، وطقوس الأضاحى البشرية، وقد اندثرت هذه الطقوس من الحضارة الفينيقية فى فترة مبكرة نسبياً ولكنها استمرت فى قرطاجة حتى دمارها على أيدى الرومان. وكان إله المدينة يدعى ملكارت، ويلقب ببعل هامون أى سيد المحرقة، إشارة



لوحة من الفسيفساء تصور صيادين أحدهما يستخدم الحربة الثلاثية والثانى يقود المركب

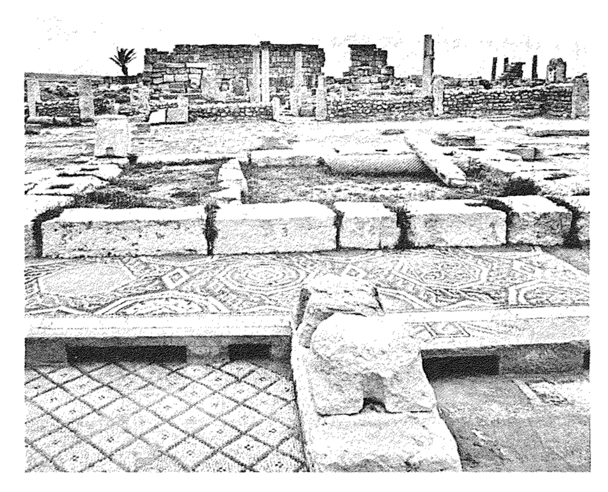
إلى تلك الطقوس البربرية. وقد كشفت الحفائر فى منطقة سلامبو إلى الجنوب من قرطاجة عن جبانة صغيرة كان يدفن فيها رماد هذه الاضحيات البشرية، وكان أغلبها لأطفال صغار. وقد عثر على جبانات مماثلة فى المستعمرات القرطاجية الأخرى فى أفريقيا

وسردينيا.

وكان لسقوط صور في أيدى الأشوريين أثره فى ازدهار قرطاجة، إذ فر الكثير من كبار التجار إلى تلك المستعمرة النائية بثرواتهم، مما أدى إلى انتعاش تجارها وزيادة العمران فيها، ويقال إن أسوارها كانت تمتد لمسافة ٣٤ كم وترتفع ١٣ متراً، وقد اعتمد القرطاجيون على المرتزقة في تكوين جيوشهم لاسيما أثناء حروبهم مع روما، وكان معظم جنود حملة هانيبال فى ايطاليا من المرتزقة أيضاً، ولعل هذا كان من أهم أسباب هزيمة القرطاجيين فى حروبهم.

ولم يكن عزوف أهل قرطاجة عن الجندية نتيجة لقلة شجاعتهم، فقد كان القرطاجيون من أبرع الملاحين وأكثرهم جرأة، ويقال إنهم قد وصلوا بتجارتهم إلى الجزر البريطانية وأيرلندا شمالا، وأنهم أوفدوا ملاحاً شهيراً منهم يدعى هانون فى رحلة استكشافية لساحل أفريقيا الغربى، وقد وصل هذا الملاح إلى قرب خط الاستواء وأسس سبع مستعمرات تجارية على امتداد الساحل.

ورغم أن قرطاجة قد فقدت جميع مستعمراتها للمرة الثانية بعد هزيمة هانيبال، إلا أنها استطاعت فى فترة قصيرة أن تستعيد



كانت الفسيفساء تستخدم بكثرة لتغطية أرضيات المنازل والمعابد والمسارح

قوتها ونشاطها التجارى، ولذا أحس الرومان بالقلق وحرضوا ماسينيسا ملك نوميديا (الجزائر) على التحرش بهم، فاستولى على عدد كبير من قراهم وحصونهم. ولجأ القرطاجيون إلى روما لتوقف حليفها، ولكن روما تجاهلت نداءهم، فأعد القرطاجيون جيشًا لمحاربة النوميديين، لكنه هزم، واشترط الرومان على قرطاجة

لإجابة طلب الصلح تسليم أسلحتها وعدد من شبابها كرهائن، ولم يقنع الرومان بذلك، بل عمدوا إلى إحراق الاسطول القرطاجى.

لكن هذا كله لم يكن كافيا لكى يبدد خوف الرومان من تلك المدينة ولاحقدهم على أبنائها أحفاد هانيبال الذى كاد يوماً أن يعصف بروما ذاتها ويحيلها إلى مستعمرة قرطاجية، فأمروا سكان قرطاجة بالرحيل عنها إلى موضع آخر.

غير أن القرطاجيين لم يكن فى وسعهم تقبل المزيد من الهوان، فهانت عليهم الحياة، واعتزموا المقاومة حتى النهاية دفاعاً عن شرفهم. وطوق الرومان المدينة، وقطعوا عنها الامدادات، ثم اقتحموا أسوارها، لكن القرطاجيين ظلوا يقاومون من بيت إلى بيت حتى دمرت المدينة بأكملها، ولجأ من تبقى من أهلها إلى هيكل معبودهم ملكارت، حيث أشعلوا النار فى المعبد ليهلكوا فيها جميعاً كآخر أضحية بشرية تقدم على أرضهم.

ولم يتبق من آثار قرطاجة الرومانية الشئ الكثير، ويمكن رؤية بقايا حمامات هدريان ومسرح رومانى صغير بالقرب من الخليج. ومن أعلى هذا المسرح يمكن للزائر أن يرى مشهداً بديعاً لمياه الخليج الزرقاء التى يهيمن عليها من بعد جبل شامخ ذو قمة

مزدوجة جعلته يشبه البركان وأكسبته اسم بوجرنين أو « أبى قرنين ».

وإلى الشمال تقع ضاحية بورسعيد، وهى من أجمل المزارات التونسية، وتقع هذه الضاحية المبنية على الطراز العربى على أعلى مرتفع يشرف على مياه الخليج، ويصعد الزائر إليها فى طريق ملتو يلف حول التل وتحفه فيلات أنيقة تكتنفها الحدائق الغناء، ومن أعلى يمكن للزائر أن يهبط إلى مياه الخليج عن طريق سلم صخرى تكسوه الزهور والنباتات المتكاثفة، التى تعزف بألوانها وشذاها العطرى سيمفونية عبقرية على خلفية من زرقة السماء وخضرة المياه وحمرة الشفق التى تتخلل صفحة السماء وقت الغروب، وكأنما هى أنشودة وداع لتلك البقعة الخالدة.

تونس الرومانية

لأكثر من ثمانية قرون ظلت تونس خاضعة للسيادة الرومانية ثم البيزنطية مع فترات قصيرة خضعت فيها لحكم قبائل الوندال. وقد عاشت جالية كبيرة من المواطنين الرومانيين فى تونس وغيرها من بلدان شمال افريقيا، عملت على نشر حضارتها وأساليب حياتها

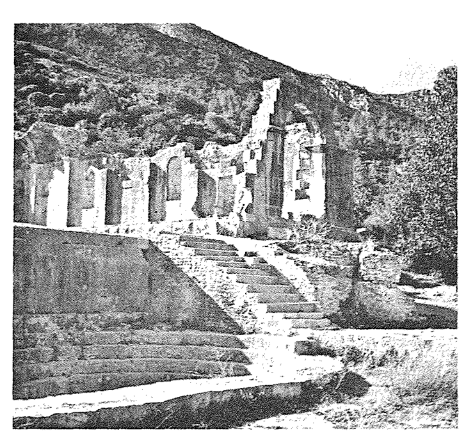
وفنونها المعمارية، ولم تكن تلك الحضارة والفنون، ومعظمها متأثر أو منقول من الحضارة الاغريقية، بالغريبة على ابناء قرطاجة وغيرهم من سكان تونس القدماء، وهم الملاحون الذين جابوا العالم القديم. وقد بنيت الكثير من المدن أو أعيد تخطيطها وفقًا للطراز الرومانى.



معبد رومانى يزينه رواق أعمدة خارجى ويتقدمه الدرج التقليدى وأمامه قوس نصر

وكان أهم معالم المدينة الرومانية الفورم الذى يتقاطع عنده الشارعان الرئيسيان اللذان يربطان أحياء المدينة من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب، والفورم هذا ميدان فسيح تطل عليه مبانى الإدارة و « السنتو » أو مجلس

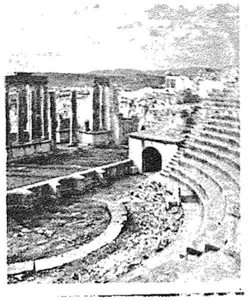
الشيوخ، وتقام فيه الأسواق ويصوت فيه الأهالى فى الانتخابات.



معبد مكرس لحوريات الماء بالقرب من تونس العاصمة

وقد مزج الأهالى بين معبوداتهم المحلية وأرباب الرومان فجعلوا ملكارت معادلا لستورن وقرنوا بين زوجته تانيت والربة جونو زوجة الإله جوبيتر (وهى هيرا فى الأساطير الرومانية)، كما عبدت الأرباب الرومانية بصورتها الأصلية كذلك. وكانت المعابد فى العادة تتألف من بهو مستطيل تحفه الأعمدة الرخامية من الخارج، أو يتقدم واجهته صف أو صفان من الأعمدة الرخامية التى تزين تيجانها (قممها) بأوراق نباتية (فى الأغلب الأكنثوس)، ويرتفع بناء المعبد على مستوى الأرض المحيطة ببضع

درجات تساعد على إبراز واجهته، التى تزدان بطنف (افريز) ذى قمة مدببة. وكان لهذه المعابد، خاصة فى المناطق الشمالية، سقوف منحدرة لتصريف مياه الأمطار، ولكن معظمها قد تخرب الآن، وباتت المعابد مفتوحة إلى السماء.

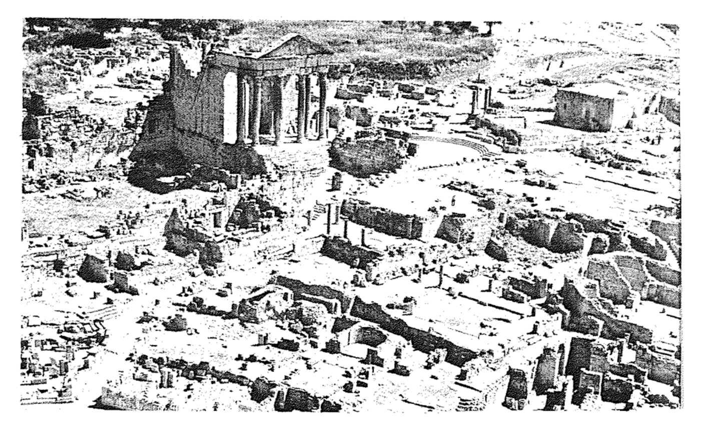


مسرح دوجا .. مقاعد المتفرجين فى هيئة مدرجات منقورة فى نشز صخرى وأمامها مكان التمثيل

وكان تمثال المعبود يوضع فى الداخل، حيث يتوجه إليه المتعبدون بالصلاة ويقربون له القرابين.

ومن أجل أمثلة المعابد الرومانية، معبد زغوان المكرس لحوريات المياه والذى أقيم فى المنطقة التى كانت تستمد منها قرطاجة مياه الشرب، وقد أقام الامبراطور هدريان فى تلك المنطقة قناطر ضخمة كانت تصل حتى مدينة قرطاجة لنقل المياه.

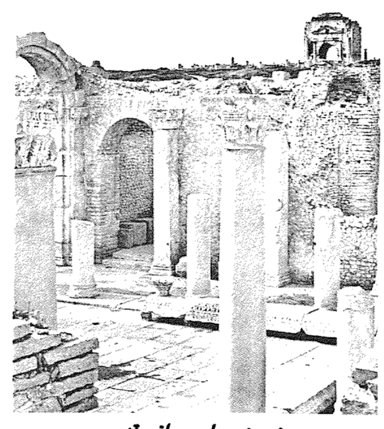
ويمكن رؤية أفضل نموذج للفورم الرومانى فى مدينة دوجا الواقعة جنوب غرب تونس، وتحتفظ هذه المدينة كذلك بمسرح عظيم محفور فى قلب الصخر ما زال يستخدم فى التمثيل حتى اليوم.



الفورم الرومانى فى دوجا يهيمن عليه المعبد

والمسارح والملاعب كانت من أبرز سمات المدن الرومانية فى تونس، وكان المشاهدون يجلسون على مدرجات محفورة فى جانب مرتفع صخرى أو مبنية من الأحجار ومكسوة بالرخام كما هو الحال فى ملعب مدينة الجم (تيسدروس القديمة) بالقرب من ميناء سوسة، وكانت هذه الملاعب تستغل لتنظيم مباريات المصارعة الدموية التى يجبر فيها الرجال على مصارعة الحيوانات المفترسة مثل الأسود والدببة، أو يتقاتل فيها مصارعان أحدهما يمسك

بسيف قصير ودرع صغير مستدير، بينما الثانى يمسك بحربة ذات ثلاثة سنون وشبكة يحاول بها اقتناص خصمه.



جزء من حمام رومانى قديم

ومع انتشار المسيحية بدأ الجمهور ينصرف عن تلك الرياضات الدموية، كما بدأ الاقبال يقل على المسرح الكلاسيكى الذى يرتبط إلى حد بعيد بالأساطير القديمة والاحتفالات الدينية للاغريق والرومان، كما تأثر النشاط الفنى بالتدهور الاقتصادى والفوضى السياسية التى أصابت الامبراطورية الرومانية فى أيامها الأخيرة. وجاءت الضربة القاضية عندما غزا البرابرة الفندال تونس، وعندما دخل المسلمون أرضها كان النشاط المسرحى أثرًا من آثار الماضى، وكانت معظم

المسارح والملاعب قد تخربت أو اندثرت بالفعل. ورغم اهتمام المسلمين الأوائل فى عصور الازدهار الفكرى بتراث الأمم السابقة، خاصة الاغريق، وانتفاعهم به دون عقد أو حساسيات، لكنهم لم يظهروا ادنى اهتمام بالمسرح الكلاسيكى، ربما لارتباطه كما أسلفنا بأساطير الأغريق وديانتهم، كما أن الطبيعة الدموية لمباريات المصارعة الرومانية قد ازهدتهم فى محاولة إصلاح ما تبقى من تلك المنشآت العظيمة المتخربة. وكان على المسرح التونسى أن ينتظر أكثر من ألف عام حتى يعود للحياة مرة أخرى فى مطلع القرن العشرين.

القيروان

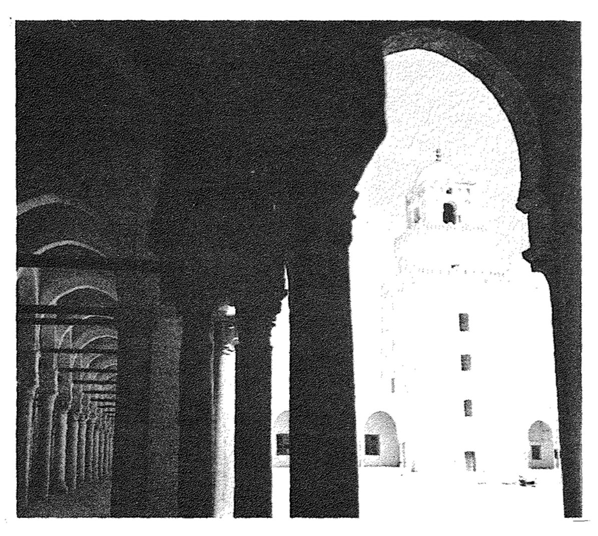
أسس عقبة بن نافع مدينة القيروان لتكون قاعدة للعمليات العسكرية فى المنطقة ضد الروم وقبائل البربر المعادية. ولم تكن تزيد فى بادئ الأمر عن ثكنة حربية يتوسطها مسجد ويحيطها خندق متسع، ولذا سميت بالقيروان أى المعسكر. وقد استولى عليها الأمير البربرى كسيلة بعد استشهاد عقبة بن نافع فى موقعة تهوده، فخربها، ولكن حسان بن النعمان استردها من جديد،

وجعلها عاصمة لولاية افريقية (تونس) بعد أن قضى على قوة « الكاهنة » وثبت دعائم الحكم الاسلامى فى المنطقة فى مطلع القرن الثامن الميلادى.

وأصبحت القيروان مقرًا لولاة الامويين والعباسيين، ثم عاصمة لأسرة الأغالبة الذين استقلوا بتونس عن حكم العباسيين، ومع حكم الأغالبة بدأ الازدهار الحقيقى للمدينة، وهو ازدهار لم ينقطع رغم تحول العاصمة فيما بعد إلى تونس.

ولمدينة القيروان (التى تقع على بعد ١٥٦ كم جنوب تونس) طابع اسلامى صرف يتجسد فى عمائرها ومساجدها وطرقها العتيقة وأسواقها الشرقية وأسوارها التى ما زالت قائمة حتى يومنا هذا ببواباتها، وإن كان الامتداد العمرانى قد جاوزها فأصبحت اليوم تقع فى قلب المدينة.

ويوجد بالمدينة على صغرها (كسائر المدن التونسية) خمسون جامعًا، أعظمها جامع القيروان الذى أسسه فى الأصل عقبة بن نافع، ولكن البناء الحالى يعود إلى عصر الأغالبة حيث أعاد الأمير زيادة الله بن ابراهيم ثالث حكام هذه الأسرة بناءه عام ٨٣٦م، ولم يتبق من الجامع القديم سوى مئذنته التى تحاكى مئذنة الزيتونة

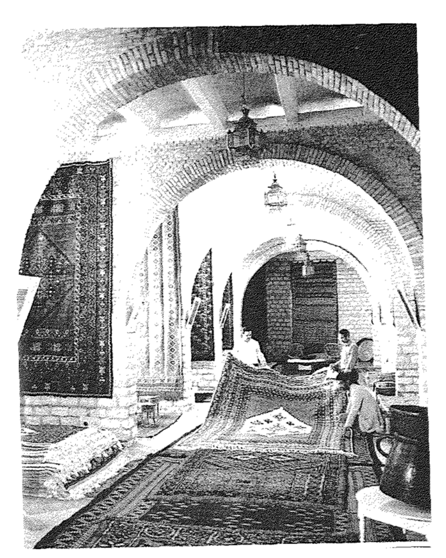


مئذنة جامع القيروان

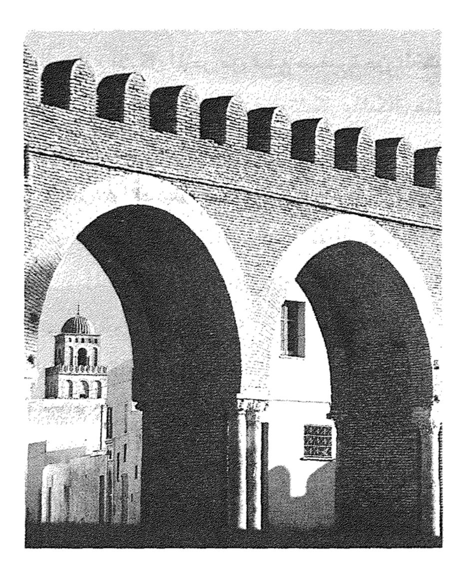
ببرجها المربع المتدرج الذى يبلغ ارتفاعه بطوابقه الثلاثة حوالى ٣١م.

ويتألف الجامع من صحن فسيح مكشوف إلى السماء تحيطه أروقة معمدة، وتسند جداره الخارجى دعائم ضخمة كالأبراج تضفى عليه هيئة الحصن. ويتألف بيت الصلاة من ١٧ رواقا

عموديا على جدار القبلة، أوسعها الرواق الأوسط الذى يعرف بالمجاز، وينتهى بالمحراب الذى يرجع إلى عصر لاحق، وتكسوه زخارف رخامية هندسية ونباتية بديعة، أما طاقية المحراب، فتغطيها بلاطات من الخزف ذى البريق المعدنى، وتعتبر هذه المجموعة النادرة من الخزف من أقدم أمثلة استخدامه المعروفة فى العمارة الاسلامية.



صناعة السجاد اليدوى من الحرف الشهيرة فى مدينة تونس



أبواب مدينة القيروان وأسوارها

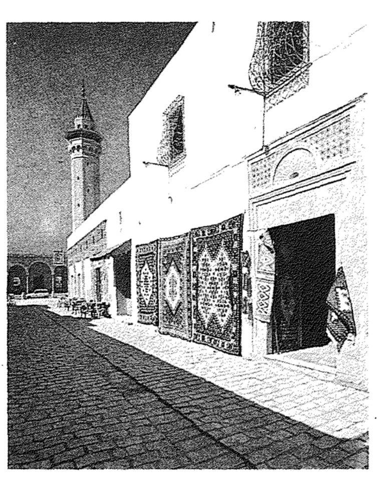
والمـــنـــبـــر الخشبى تحفة نادرة من أقدم نماذج المنابر الإسلامية وهو يعود إلى عصر الأمير احمد ابن ابراهيم، وقد صنع من حشوات من خشب الساج المـــزخـــرف بـــعـــنـــاصـــر هندسية وأوراق نباتية. وقد ابتكر المسلمون أسلوبًا خاصًا فى صناعة الأثاث الخشبى يعوضون به قلة الأخشاب الصالحة لأشغال النجارة فى أرضهم ، ويسمحون فيه فى ذات الوقت للأخشاب بالتمدد والانكماش دون أن يؤثر ذلك على صلابة المنتج، فكان

الصانع يشكل المنبر من قطع صغيرة من الخشب الثمين تزخرف بالنقش أو التطعيم بالصدف وتشكل بأشكال هندسية معينة وتجمع هذه القطع (أو الحشوات كما تعرف) فى هيئات هندسية معينة أشهرها الأطباق النجمية عن طريق التعشيق، ثم تثبت هذه الحشوات المجمعة بأطر خشبية طويلة تشكل دعائم المنبر.

وبالمدينة مسجد أغلبى آخر شهير يعرف باسم جامع الثلاثة بيبان (أبواب) نسبة إلى الأبواب الثلاثة المفتوحة فى واجهته المزينة بثلاثة عقود تحمل نصاً كتابياً منقوشاً بالخط الكوفى تنسب هذا الجامع إلى الأمير محمد بن خيرون المعافرى (٨٦٦).

وخارج أسوار المدينة الشمالية توجد بركتان مستديرتان هما الأثر الباقى من أحد المشروعات الهامة التي أقامها الأغالبة فى القرن التاسع الميلادى لتوفير المياه للمدينة، وتعرف هاتان البركتان باسم فسقية الأغالبة، وقطر الصغرى منهما ٥ر٣٧ متر، أما الكبرى فقطرها ١٢٠ م، ويبدو أن المياه كانت تجلب من الوادى القريب حينما يفيض بالماء إلى البركة الصغرى لترسيب الطين والشوائب العالقة ثم تنقل بعد ذلك إلى البركة الكبرى، ومنها إلى أحواض أخرى.

ولكن الأغالبة لم يسكنوا القيروان نفسها، بل أقاموا فى ضاحية خاصة تقع على مسافة قريبة إلى الجنوب وتعرف باسم القصر القديم أو القصر الأبيض، وكان ابراهيم بن الأغلب قد أسماها العباسة لإظهار ولائه الاسمى للعباسيين، وقد تحولت هذه الضاحية إلى مدينة قائمة بذاتها تتسع لعدد كبير من الحمامات والفنادق والأسواق ويحيطها سور ضخم. ولكنها تعرضت للخراب حينما هجرها الأمير ابراهيم بن احمد فى عام ٨٨١م إلى ضاحية جديدة تعرف باسم رقادة على بعد تسعة كيلومترات من القيروان، وقد تحول قصرها الآن إلى متحف للفن الإسلامى، ويمكن



تمتاز أسواق تونس بطابعها الشرقى الأصيل ونظافتها

هناك رؤية الآثار المتبقية من قصورها ودورها وحماماتها وأسواقها المندرسة.

سوسة

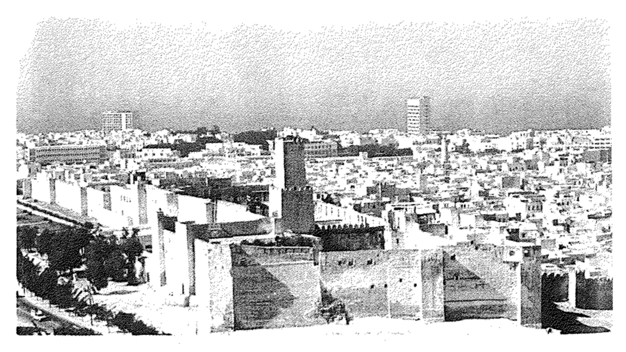
لا تكتمل زيارة القيروان إلا بزيارة ولاية سوسة التى تعتبر من أهم المناطق السياحية والأثرية فى تونس وساحل البحر المتوسط.

وتقع مدينة سوسة عاصمة الولاية على ساحل البحر المتوسط فى المنطقة المعروفة باسم خليج الحمامات، على بعد حوالى ٦٧ كم شرقى القيروان. وكانت فى الأصل احدى المستعمرات الفينيقية القديمة التى خضعت لسلطان قرطاجة ثم حكمها الرومان حتى دمرها الفندال فى القرن الخامس الميلادى. واعيد بناؤها فى عصر الامبراطور البيزنطى جستنيان عندما نجحت جيوشه فى استعادة شمال افريقيا لحكمه، وسميت على اسمه « جستنيانبوليس». وقد استبسل الروم فى الدفاع عنها ضد العرب، مما اضطر عقبة بن نافع إلى حصارها لفترة طويلة.

وازدهرت سوسة فى ظل الفتح العربى، خاصة فى عصر الأغالبة الذين اهتموا بتحصينها، ومازالت أسوارها الحجرية

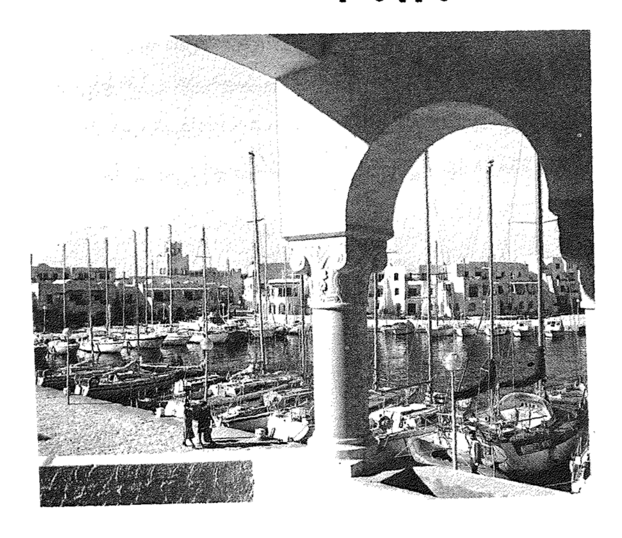
الضخمة بأبراجها المنيعة قائمة حتى اليوم، وكذلك رباطها، الذى يعد من أفضل النماذج المتبقية من هذا النوع من القلاع الحربية التى حرص المسلمون على إقامتها على الحدود والسواحل. وتختلف الأربطة عن القلاع العادية من حيث طابعها الدينى، فالجند الذين يحرسونها كانوا من المتطوعين الذين نذروا أنفسهم للجهاد والعبادة.

والرباط عبارة عن حصن مربع طول ضلعه ٤٠ م وارتفاع سوره ٥ر٨ م، وتعلوه شرفات نصف مستديرة كان الجنود يحتمون خلفها وهم يطلقون السهام. وبه ثمانية أبراج فى أركانه ومنتصف



مدينة سوسة وأسوارها القديمة

أضلاعه، وفوق أحدها أقيمت مئذنة ارتفاعها ١٥ م تقريباً، وكان الهدف منها أن تكون كذلك برجاً للمراقبة إلى جانب استخدامها فى رفع الأذان. ويرجع تاريخ هذا الرباط إلى القرن التاسع الميلادى، ويستغل اليوم هذا البناء لاقامة الأنشطة الثقافية المختلفة مثل الحفلات الموسيقية والفنية.



ميناء سوسة



جامع سوسة من الداخل والبرج المستدير المستخدم للأذان

وتباهى مدينة سوسة بمسجدها العتيق الذى يعود كذلك إلى منتصف القرن التاسع الميلادى (عصر الأغالبة)، وإن كان قد جدد أكثر من مرة، آخرها فى القرن السابع عشر (العصر العثمانى) حتى وصل إلى مساحته الحالية. وهو يماثل جامع القيروان فى تخطيطه. إذ يتألف من صحن سماوى تحيطه أروقة مظللة تستند

على دعائم سميكة، ويتقدمه بيت الصلاة الذى ترفع سقفه صفوف من الأعمدة الرخامية التى جلبت من الآثار الرومانية القديمة. ولا توجد بالجامع مئذنة، ولكن به برج دائرى صغير فى الركن الشمالى الشرقى تغطيه قبة وكان يستخدم للأذان.

وعلى بعد ٢٤ كم جنوبا تقع بلده مُنستير، مسقط رأس الرئيس السابق بورقيبة، وكانت هى الأخرى من الثغور الاسلامية الهامة وبها رباط مماثل تحول الآن إلى متحف للآثار الإسلامية.

وإلى الجنوب منها تقع مدينة المهدية عاصمة الخلافة الفاطمية التى أسسها الخليفة عبيد الله المهدى أول الخلفاء الفاطميين فى افريقيا عام ٣٠٢ هـ.، وأنشأ بها دارا ضخمة لصناعة السفن، وأحاطها بأسوار منيعة، ويقال إنه صنع بابين من الحديد لها زنة كل منهما ألف قنطار، وحفر بها ٦٣ صهريجاً لتخزين المياه، كما أقام بالقرب منها مدينة صغيرة سماها زويلة على اسم احدى القبائل المغربية من أشياعه.

وقد ولد بهذه المدينة المعز لدين الله الفاطمى، مؤسس مدينة القاهرة التى مازالت تنسب إليه حتى اليوم بقولنا القاهرة المعزية. وقد اضمحل شأن هذه المدينة بعد أن غادرها المعز بجميع أهله

وكنوزه ليتخذ من القاهرة عاصمة للخلافة الجديدة. ولكن بعض أجزاء أسوارها وبواباتها القديمة مازالت قائمة تشهد على ما كانت عليه هذه المدينة من قوة ومنعه

وإلى الغرب منها تقع مدينة الجم، التى تعتبر من أهم المواقع الأثرية الرومانية فى ولاية سوسة، ومازالت تحتفظ هذه المدينة بملعبها القديم الذى يحاكى هيئه الكولوسيوم الشهير فى روما.

بنزرت

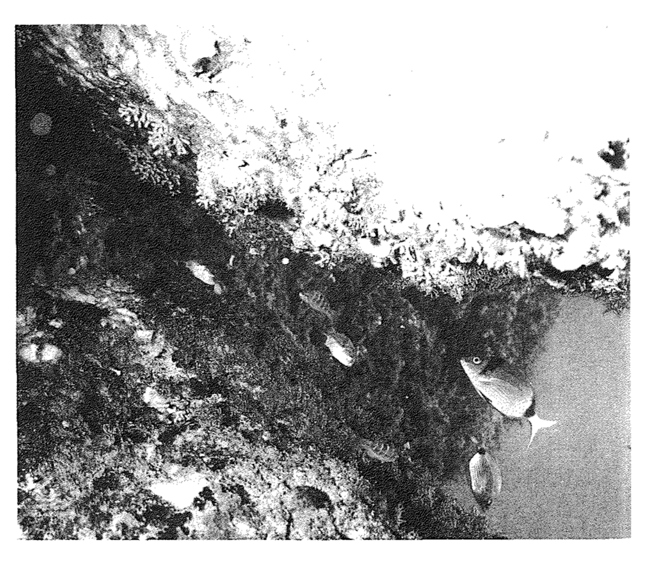
إلى الغرب من العاصمة تونس تقع ولاية بنزرت التى تعتبر من أجمل المناطق السياحية والأثرية فى تونس، فعلى أرضها أقام الفينيقيون أقدم مستعمراتهم فى شمال افريقيا (أوتيكا)، وبها أطلال مدينة دوجا الرومانية التى نتعرف من خلال أطلالها على الملامح الرئيسية للمدينة الرومانية القديمة (راجع تونس الرومانية).

أما مدينة بنزرت فهى ميناء رئيسى ذو موقع استراتيجى هام، مما جعل قوات المحور تتخذ من هذه المدينة قاعدة لعملياتها العسكرية، واستتبع ذلك تعرض المدينة لغارات مروعة شنتها عليها طائرات الحلفاء وأساطيلهم. وقد تشبثت فرنسا بالبقاء فيها بعد

استقلال تونس عام ١٩٥٦، ولم تنسحب منها إلا بعد أن قررت منح الجزائر استقلالها، وكان ذلك عام ١٩٦٢.

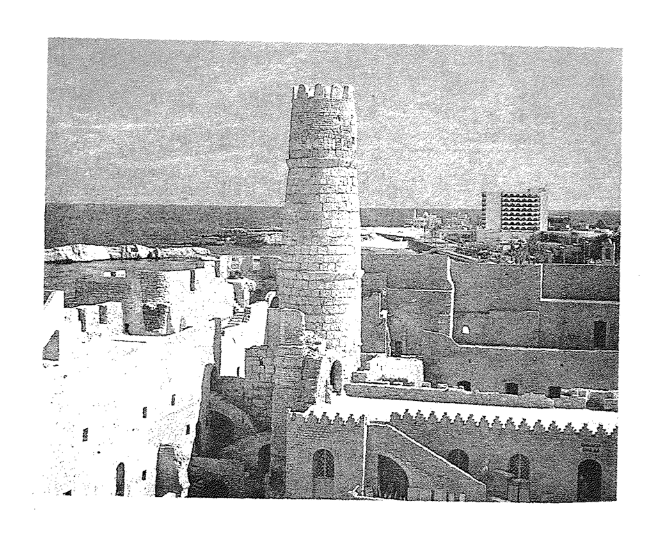
وتكسو الغابات الطبيعية منحدرات جبال أطلس التى تهيمن على أرض الساحل، وتوفر هذه الغابات بيئة مثالية لممارسة رياضة الصيد الذى يبدأ موسمها الرسمى فى فصل الخريف، حيث تكثر فى تلك الغابات الثعالب والخنازير البرية وبنات آوى والأرانب، وكانت تسكنها فى الماضى حيوانات ضارية كالأسود والفهود، ولكنها اندثرت الآن، وقد اصطيد آخر أسد قبل أكثر من ٧٠ عاماً، أما آخر فهد فقد تم صيده عام ١٩٣٢.

وتشتهر المناطق الجبلية أيضا بعيونها المعدنية الساخنة المعروفة باسم عيون بورقيبة، على اسم الرئيس التونسي السابق. ومن أجمل المزارات السياحية هناك قرية عين دراهم، أو العين الفضية التى تشتهر بجمال مناظرها الطبيعية. وإلى أقصى الغرب تقع منطقة طبرقة، ولا يجب الخلط بينها و بين طبرق فى ليبيا، وتشتهر هذه المنطقة بتكويناتها الصخرية العجيبة التى تشبه الابر المدببة والتى نحتتها الرياح. ويقصد عشاق الغوص تحت الماء تلك المنطقة للاستمتاع بحدائق المرجان التى تنتشر أمام سواحلها



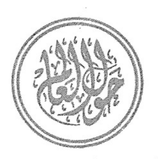
حدائق المرجان أمام ساحل طبرقة

الصخرية.. هكذا تتضافر عوامل الطبيعة لكى تضفى على أرض تونس وجبالها وسهولها وبحرها ثراء فى اللون والشكل يعادل التنوع الحضارى لذلك الشعب الذى يمتد تاريخه فى عمق الزمان آلاف السنين..



رباط مونستير

الصخرية.. هكذا تتضافر عوامل الطبيعة لكى تضفى على أرض تونس وجبالها وسهولها وبحرها ثراء فى اللون والشكل يعادل التنوع الحضارى لذلك الشعب الذى يمتد تاريخه فى عمق الزمان آلاف السنين..



استراليا

كندا

اسبانيا

تركيا

الهند

الصين

اليابان

اندونيسيا

ايطاليا

البرازيل

بيرو

تونس

عمان

بلجيكا

جنوب افريقيا

